وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

وإن كادوا ليستفزّونك : وإن كادوا ليزعجونك(١) .

كنّا بشأن الآيات الكريمات السّابقات مع مجموعة من الأمور الممتنعة بإذن الله تعالى رغم حرص المشركين عليها وعلى متعلّقاتها. وإنّ الشّيء ذاته يقال هنا.

إنّ الآية الكريمة الأولى تقرّر أنّ مشركى قريش كادوا يستفزّون المصطفى ﷺ من الأرض، ويزعجونه من أرض مكّة المكرّمة، بقصد أن يخرجوه عليه الصّلاة والسّلام منها. إنّ الاستفزاز كاد يحدث ولكنّ الله سبحانه وتعالى سلّم، وبناءً على ذلك فإنّ الخروج من مكّة المكرّمة لم يتمّ، إنّما تمّ الخروج بإذن الله تعالى وبأمره. إنّ الخروج لو فُرِض أنّه تمّ بإرادة مشركى قريش لما لبثوا بعد المصطفى ﷺ وخلفه(٢) فى مكّة المكرّمة إلاّ قليلاً يأخذهم الله تعالى إثره أخذ عزيزٍ مقتدر.

وإنّ الآية الكريمة الثانية تقرّر أنّ تلك هي سنّة الله تعالى فى المكذّبين السّابقين. إنّهم حينما يخرجون نبيّ الله تعالى من بين ظهرانَيْهِمْ يخرجهم الله تعالى من قريتهم، ولن تجد لسنّة الله تعالى تحويلاً ولا تبديلا.

إنّنا بصدد مجموعة من الأمور الّتى امتنعت بإذن الله تعالى وهي استفزاز المصطفى ﷺ من أرض مكّة من قِبلَ مشركى قريش، فإخراجهم له عليه الصّلاة والسّلام، فإخراج الله تعالى لهم من قريتهم.

وممّا يتعلّق بسنّة الله تعالى بإخراج الّذين أخرجوا نبيّ الله تعالى من قريتهم قول الحقّ جلّ وعلا عن فرعون وآله فى هذه السّورة الكريمة(١) : ﴿فأراد أن

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «فز» ٣٧٩.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ٩٠.

يستنفزّهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا﴾.

وإنّما نُسب إخراج المصطفى ﷺ من مكّة المكرّمة إلى مشركى قريش فى قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة محمّد ﷺ(٢) : ﴿وكأيّن من قريةٍ هي أشدّ قوّةً من قريتك الّتى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم﴾ بقصد التّنبيه إلى شدّة حرص المشركين على الإخراج، وحينما تحقّق الإخراج بإذن الله تعالى وبأمره وافق شدّة حرص المشركين عليه فنسبت الآية الكريمة الإخراج إليهم. وإليك هذا الدّليل من صحيح البخارى(٣) عن عروة بن الزّبير «أنّ عائشة زوجَ النّبيّ ﷺ قالت : لم أَعْقِل أبويّ إلاّ وهما يدينان الدّين ولم يمرّ عليهما يومٌ إلاّ يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النّهار بُكْرةً وعشيّة. فبينما نحن جلوسٌ فى بيت أبي بكر فى نحر الظّهيرة قال قائل : هذا رسول الله ﷺ، فى ساعة لم يكن يأتينا فيها. قال أبوبكر : ماجاء به فى هذه السّاعة إلاّ أمر. قال : إنىّ قد أُذن لي بالخروج».

---

(١) سورة الإسراء ١٠٣.

(٢) الآية ١٣.

(٣) ٨/ ٢٦.

أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾

أقم الصّلاة لدلوك الشّمس : دلوك الشّمس له معنيان اثنان. أحدهما أنّ دلوك الشّمس هو وقت غروبها، والصّلاة الّتى أمر بإقامتها حينئذٍ صلاة المغرب(١) ومن الّذين ذهبوا إلى هذا المعنى ابن مسعود وابن عبّاس وابن زيد(٢) عن قتادة قال: قد ذكر لنا أنّ ابن مسعود كان يصلّيها إذا وجبت. وعندها يفطر إذا كان صائماً. ثمّ يقسم عليها قسماً لا يقسمه على شيءٍ من الصّلوات بالله الّذى لا إله إلا هو : إنّ هذه السّاعة لميقات هذه الصّلاة ثمّ يقرأ ويصلّيها. وتصديقها من كتاب الله : ﴿أقم الصّلاة لدلوك الشّمس إلى غسق الّليل﴾(٣) والمعنى الآخر أنّ دلوك الشّمس زوالها(٤) ومن الّذين ذهبوا إلى هذا المعنى ابن عبّاس وقتادة ومجاهد والحسن(٥) عن الحسن قال : قال الله عزّ وجلّ لنبيّه محمّد ﷺ : ﴿أقم الصّلاة لدلوك الشّمس إلى غسق الّليل﴾ قال: الظّهر دلوكها إذا زالت عن بطن السّماء وكان لها فى الأرض فيء(٦) وعن جابر بن عبد الله قال : دعوت نبيّ الله ﷺ ومن شاء من أصحابه فطعموا عندى ثمّ خرجوا حين زالت الشّمس، فخرج

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ٩١.
(٢) انظر تفسير الطّبرى ١٥/ ٩١ وانظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «دلك» ١٧١.
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ٩١.
(٤) تفسير الطّبرى ١٥/ ٩١.
(٥) تفسير الطّبرى ١٥/ ٩٢.
(٦) تفسير الطّبرى ١٥/ ٩٢.

النّبيّ ﷺ فقال : اخرج يا أبابكر قد دلكت الشّمس(١) والدّلوك فى كلام العرب الميل، يقال منه : دلك فلانٌ إلى كذا إذا مال إليه(٢) وهذا تفسير أهل الغريب أبى عبيدة والأصمعيّ وأبى عمرو الشّيبانى وغيرهم(٣) وقد رجّح الطّبريّ هذا الرّأي(٤)

إلى غسق اللّيل : عن ابن عبّاس : بدوّ اللّيل(٥) وعن مجاهد غروب الشّمس(٦) وعن قتادة : صلاة المغرب(٧) وغسق اللّيل : شدّة ظلمته(٨) .

وقرآن الفجر : صلاة الصّبح(٩) ومعناه : وأقم قرآن الفجر، أي ماتقرأ به فى صلاة الفجر من القرآن. والقرآن معطوف على الصّلاة فى قوله : ﴿أقم الصّلاة لدلوك الشّمس﴾(١٠) .

ان قرآن الفجر كان مشهوداً : يقول إنّ ما تقرأ به فى صلاة الفجر من القرآن كان مشهوداً يشهده فيما ذكر ملائكة اللّيل وملائكة النّهار(١١) روى البخاريّ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال : فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة. وتجتمع ملائكة اللّيل وملائكة النّهار فى صلاة الفجر. يقول أبوهريرة : اقرأوا إن شئتم : ﴿وقرآن الفجر. إنّ قرآن الفجر كان مشهودا﴾(١٢) .

ومن اللّيل فتهجّد به : ومن اللّيل فاسهر بعد نومةٍ يامحمّد بالقرآن(١٣)

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ٩٣.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ٩٢.
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ٩٢.
(٤) تفسير الطّبرى ١٥/ ٩٢.
(٥) تفسير الطّبرى ١٥/ ٩٣.
(٦) تفسير الطّبرى ١٥/ ٩٣.
(٧) تفسير الطّبرى ١٥/ ٩٣.
(٨) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «غسق» ٣٦٠.
(٩) الجلالين.
(١٠) تفسير الطّبرى ١٥/ ٩٤.
(١١) تفسير الطّبرى ١٥/ ٩٤.
(١٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٤.
(١٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ٩٤.

والتّهجّد : التّيقّظ والسّهر بعد نومه من اللّيل(١) .

نافلةً لك : خالصةً دون أمتّك(٢) ونفلاً لك عن فرائضك الّتى فرضتها عليك(٣) عن ابن عبّاس : يعنى بالنّافلة أنّها للنّبيّ ﷺ خاصّة ، أمر بقيام اللّيل وكتب عليه. وقال آخرون : بل قيل ذلك له عليه السّلام لأنّه لم يكن فعله ذلك يكفّر عنه شيئاً من الذّنوب لأنّ الله تعالى كان قد غفر له ماتقدّم من ذنبه وما تأخّر فكان له نافلةَ فضل، فأمّا غيره فهو له كفّارة وليس هو له نافلة(٤) .

عسى أن يبعثك ربّك مقاماً محموداً : عسى من الله واجبة(٥) وتأويل الكلام: أقم الصّلاة المفروضة يامحمّد فى هذه الأوقات الّتى أمرتك بإقامتها فيها. ومن اللّيل فتهجّد فرضاً فرضته عليك لعلّ ربّك أن يبعثك يوم القيامة مقاماً تقوم فيه محموداً تحمده وتغبط فيه(٦) ويحمدك فيه الأوّلون والآخرون وهو مقام الشّفاعة(٧) عن ابن عبّاسٍ قال : المقام المحمود مقام الشّفاعة(٨) روى البخاريّ عن جابر بن عبد الله أنّ رسول الله ﷺ قال : من قال حين يسمع النّداء : اللّهمّ ربّ هذه الدّعوة التّامّة، والصّلاة القائمة، آت محمّداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الّذى وعدته، حلّت له شفاعتى يوم القيامة(٩) .

تأمر الآية الكريمة الأولى المصطفى ﷺ بأن يقيم الصّلاة المفروضة لدلوك الشّمس بمعنى زوالها ويشمل ذلك صلاة الظّهر ابتداءً صلاة العصر انتهاءً، أو بمعنى غروب الشمس، ويشمل ذلك صلاة المغرب. إلى غسق اللّيل، بمعنى ظلام اللّيل

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ٩٥.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ٩٥.
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ٩٦.
(٤) تفسير الطّبرى ١٥/ ٩٦.
(٥) تفسير الطّبرى ١٥/ ٩٦.
(٦) تفسير الطّبرى ١٥/ ٩٧.
(٧) الجلالين.
(٨) تفسير الطّبرى ١٥/ ٩٧ وتفسير ابن كثير ٣/ ٥٥.
(٩) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٥.

إثر غروب الشَمس، ويشمل ذلك صلاة المغرب ابتداءً صلاة العشاء انتهاءً، أو بمعنى ظلمة اللّيل الشّديدة، ويشمل ذلك صلاة العشاء. كما تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ بإقامة قرآن الفجر أي صلاة الصّبح الّتى يُسمَعُ القرآن الكريم بوضوحٍ شديد فى أثناء أدائها ولهذا عُبّر عن صلاة الفجر بقرآن الفجر. وتلحق تلاوة القرآن الكريم فجراً بصلاة الفجر. وتقرّر الآية الكريمة أنّ قرآن الفجر كان وقتاً تشهده ملائكة اللّيل وملائكة النّهار كما جاء فى الحديث الصّحيح.

وإنّ كلّ فردٍ من أفراد الأمّة الاسلاميّة يتّجه إليه بعد ذلك الأمر فى الآية الكريمة.

والآية الكريمة الأخرى تخصّ المصطفى ﷺ. إنّ الآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ بأن يتهجّد بالقرآن الكريم ليلاً بعد نوم، نافلةً له ﷺ مفروضة عليه وحده دون أمّته ﷺ، عسى أن يبعثك ربّك أيّها الرّسول الكريم والنبيّ العظيم مقاماً محموداً يحمدك فيه الخلائق أجمعون، ويحمدك فيه الأوّلون والاخرون، ويحمدك فيه خالقهم تبارك وتعالى(١) وهو مقام الشّفاعة الّتى يتدافعها النّبيّون والمرسلون حتّى تنتهى إليه ﷺ فيقول: أنا لها أنا لها(٢).

وحينما نذهب إلى أنّ الدّلوك بمعنى الزّوال تكون الآية الكريمة الأولى قد تحدّثت عن الصّلوات الخمس المفروضة. الظّهر فى ابتداء الزّوال. والعصر فى انتهائه، والمغرب فى ابتداء الغسق والعشاء فى انتهائه، ثمّ تأتى صلاة الفجر.

وحينما نذهب إلى أنّ الدّلوك بمعنى غروب الشّمس تكون الآية الكريمة قد تحدثت عن ثلاثٍ من الصّلوات المفروضة هي المغرب والعشاء والفجر. ومن البيّن أنّ هذه الصلواتً الثّلاث تتمّ فى حال غياب الشّمس، وإنّ الشّىء ذاته يقال عن صلاة التّهجّد الّتى تتمّ بعد الهجود بمعنى النّوم ليلاً(٣) إنّه فى حال قبول هذا الرّأي

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٥.

(٣) انظر تفسير الطّبرى ١٥/ ٩٥.

الآخر نكون بصدد مجموعةٍ من الصّلوات، فرضها ونفلها تتمّ فى حال غياب الشمس. والله أعلم.

وَقُل رَّبِّ
أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن
لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يدعو ربّه جلّ وعلا أن يسهّل له كلّ أموره، وأن يدخله فى كلّ شأنٍ من شئونه مدخل صدق وحقّ، ومن ذلك دخول المدينة المنورة مهاجراً إليها، وأن يخرجه من كلّ شأنٍ من شئونه مخرج صدق وحق، ومن ذلك الخروج من مكّة المكرّمة مخرج صدقٍ وحق، وأن يجعل جلّ وعلا له ﷺ سلطاناً نصيراً، وملكاً ناصراً(١) وحجّةً بيّنة(٢).

ونحن لم نرد أن نربط الآية الكريمة بحادثةٍ معيّنة هى حادثة الهجرة من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة لأنّ الآية الكريمة تبدأ بسؤال الإدخال مدخل صدق وتنتهى بسؤال الإخراج مخرج صدق والمعروف أنّ الدّخول فى المدينة يأتى بعد الخروج من مكة، فترتيب الدّخول والخروج فى الهجرة عكس ترتيب الإدخال والإخراج فى الآية الكريمة. والله أعلم.

وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾

زهق الباطل : ذهب الباطل من قولهم : زهقت نفسه إذا خرجت،

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٠١.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٠٢ وتفسير ابن كثير ٣/ ٥٩.

وأزهقتها أنا. ويقال منه : زهق الباطل يزهق زهوقاً وأزهقه الله أى أذهبه(١) .

إنّ الباطل كـــان زهوقا : عــن ابن عـبّاس : ﴿إنّ البـاطل كـان زهوقا﴾ يقول : ذاهبا(٢) .

تأمر الآيــة الكريمة المصطفى ﷺ أصلاً، وكلّ مـسلمٍ لله تعالى ربّ العـالمين تبعـاً، بأن يقول ويعلن : جاء الحقّ مـتمثّـلاً فى دين الإسلام وآي القرآن ،وخـير الأنام ﷺ والنّصر من الله عزّ وجل الملك العـلاّم، وزهق الباطل، وذهب الشّرك، واضمحلّ الكفـر. إنّ الباطل كان دائما وأبداً زهوقاً بالحقّ، وذاهبـاً بالصّدق. قال عزّ من قائل(٣) : ﴿بل نقذف بالحـقّ على الباطل فيـدمغه فـإذا هو زاهق. ولكم الويل ممّا تصفون﴾.

روى البخـارىّ عن عبد الله بن مـسعود قـال : دخل النّبيّ ﷺ مكّة وحول البيت سـتّون وثلاثمائة نُصب، فجـعل يطعنها بعودٍ فى يده ويقـول : ﴿جاء الحق وزهق الباطل. إنّ الباطل كان زهوقا﴾ ﴿جاء الحقّ وما يبدىء الباطل وما يعيد﴾(٤) وكذا رواه مسلم والتّرمذيّ والنّسائى(٥) .

وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ
وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾

سلاح المسلمين الأمضى، وجـيشهم الأكبر ، وعـلاجهم الأنجع هذا القرآن الكريم. إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ ربّ العزّة والجـلال ينزّل مـــن هذا القرآن الكريم ما هو شفاء للمؤمنين من الجهل والضّلالة وأنواع العمى والأمراض، وماهو رحمةٌ

(١) انظر تفسير الطّبرى ١٥/ ١٠٣.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٠٣.
(٣) سورة الأنبياء ١٨.
(٤) سورة سبأ ٤٩.
(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٩.

لهم لأنّه يهديهم إلى الطريقة الّتى هي أحسن من كلّ طريقة، والّتى تقودهم إلى رضوان الله تعالى وجنّته.

جاء فى سورة الفرقان الأمر للمصطفى ﷺ بأن يجاهد بهذا القرآن الكافرين جهاداً كبيراً. قال عزّ من قائل(١) : ﴿فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾.

وهذا القرآن لا يزيد الظّالمين إلاّ خسراناً ونقصاناً من كلّ خير وزيادةً من كلّ شرّ، لأنّهم يعملون بعكس تعاليمه.

وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ۖ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

ونأى بجانبه : وبعد منّا بجانبه يعنى بنفسه(٢) .

وإذا مسّه الشّرّ : الشّدّة(٣) .

كان يئوساً: كان قنوطاً من الفَرَج والرَّوح(٤) .

على شاكلته : على ناحيته وطريقته(٥) .

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ ربّ العزّة والجلال إذا أنعم على الإنسان الكافر بالنّعم المختلفة من صحّةٍ ومالٍ ومنصبٍ وجاه وما إلى ذلك أعرض عن الحقّ وبعد

---

(١) سورة الفرقان ٥٢.

(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٠٣.

(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٠٣.

(٤) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٠٣.

(٥) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٠٤.

عن الله تعالى بنفسه، ظناً منه أنّ الخير الّذى ناله بسبب اجتهاده وعبقريّته. وإذا مسّه الشّرّ من مرضٍ وفقر وخمول ذكر وهوان شأن وما إلى ذلك كان يئوساً من رحمة الله تعالى قنوطاً من رَوْحه. وقد قال عزّ من قائل على لسان يعقوب عليه السّلام مخاطباً أبناءه فى سورة يوسف(١) : ﴿يابَنِيّ اذهبوا فتحسّسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من رِوْح الله. إنّه لا ييأس من رَوْح الله إلاّ القوم الكافرون﴾.

والآية الكريمة الأخرى تأمر المصطفى ﷺ وكلّ مسلمٍ لله ربّ العالمين بأن يقول على سبيل التهّديد للمشركين الضّالّين عن سواء السّبيل : كلٌّ منّا ومنكم يعمل على طريقته وطبيعته. فربّكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً، منّا ومنكم، وأقوم طريقا.

والآية الكريمة تأخذ بسببٍ من قول الحقّ جل وعلا فى سورة سبأ(٢) : ﴿وإنّا أو إيّاكم لعلى هدىً أو فى ضلالٍ مبين﴾.

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾

سبب النّزول.

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : كنت أمشى مع رسول الله ﷺ فى حرث المدينة وهو متوكّىءٌ على عسيب(٣) فمرّ بقومٍ من اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الرّوح. وقال بعضهم لا تسألوه : قال:

---

(١) الآية ٨٧.

(٢) الآية ٢٤.

(٣) العسيب، بمهملتين وآخره موحّدة بوزن عظيم، وهي الجريدة الّتى لا خُوص فيها. بفتح البارى ٨/ ٤٠١ والخُوص ورق النّخل والواحدة خُوصة.

فسألوه عن الرّوح فقالوا : يامحمّد ما الرّوح؟ فما زال متوكّئاً على العسيب. قال: فظننت أنّه يوحى إليه فقال : ﴿ويسألونك عن الرّوح قل الرّوح من أمر ربّى وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلا﴾ قال : فقال بعضهم لبعض : قد قلنا لكم لا تسألوه. وهكذا رواه البخارى(١) ومسلم(٢) .

من البّين أنّ الآية الكريمة مدنيّةٌ فى سورة الإسراء الكريمة المكّيّة. والآية الكريمة تخاطب المصطفى ﷺ وتقول له : ويسألك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم، يهود منطقة المدينة المنّورة عن الرّوح الّتى يحيا بها البدن(٣) قل لهم يامحمّد إنّ الرّوح من أمر ربّى جلّ وعلا، وممّا استأثر بعلمه دونكم(٤) وما أوتيتم أيّها النّاس من العلم إلاّ قليلاً، بالقياس إلى علم الله تعالى المحيط.

وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ
بِالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾
إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾

ولئن : الواو استئنافيّة أو عاطفة. اللام موطّئة للقَسَم، إن حرف شرط جازم(٥) .

فى الآية الكريمة الأولى يقسم ربّ العزّة والجلال بأنّه إنّ شاء أن يذهب بالّذي أوحى إلى المصطفى ﷺ من القرآن الكريم بأن يُمْحَى ماكان منه فى هيئة السّطور، ويُنْسَى ماكان منه فى الصّدور لفعل ثمّ لا تجد لك يامحمّد، بسبب محوه من السّطور والصّدور، علينا وكيلاً وقيّماً يقوم لك فيمنعنا من فعل ذلك بك ولا

(١) فتح البارى ٨/ ٤٠١ حديث رقم ٤٧٢١.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٦٠ وانظر أسباب النزول للنّيسابورى ٣٣٧و٣٣٨.
(٣) الجلالين وفتح البارى ٨/ ٤٠٢ وتفسير ابن كثير ٣/ ٦١ ومفردات الرّاغب الأصفهانى «روح» ٢٠٥.
(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٦١.
(٥) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٨/ ٨٧.

ناصراً ينصرك فيحول بيننا وبين مانريد بك(١) .

والآية الكريمة الأخرى تشير إلى رحمة الله تعالى الّتى وسعت المصطفى ﷺ: ﴿إلاّ رحمةً من ربّك﴾ وإلى فضله الكبير جلّ وعلا على المصطفى ﷺ والمعنى : ولكنّه لا يشاء ذلك رحمةً من ربّك وتفضّلاً منه عليك(٢) إنّ فضل الله تعالى عليك أيهّا الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم كان كبيراً. ومن مظاهر الفضل عليك حفظ ربّك هذا الكتاب العزيز بواسطة كلٍّ من الصّدر والسّطر.

قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾

الآية الكريمة إحدى آيات التّحدّى بالقرآن الكريم. والمعروف أنّ التّحدّي بالقرآن الكريم اتّخذ مجموعةً من الصّور، فثّمة التّحدّى بكامل القرآن الكريم كما فى هذه الآية الكريمة، والتّحدّى بعشر سورٍ مثله مفتريات وذلك فى الآية الكريمة الثّالثة عشرة من سورة هود، والتّحدّى بسورةٍ مثله وذلك فى الآية الكريمة الثّامنة والثّلاثين من سورة يونس، والّتحدّى بسورةٍ من مثله وذلك فى الآية الكريمة الثّالثة والعشرين من سورة البقرة المدنّية، علماً بأنّ كلاً من سورة هود ويونس والإسراء مكّيّة.

والآية الكريمة من سورة الإسراء الكريمة تأمر المصطفى ﷺ أن يقول لكفّار قريش بخاصّة، سائر العرب والّناس بعامّة : والله لئن اجتمعت الإنس والجنّ فى صعيدٍ واحدٍ على قلب رجلٍ واحدٍ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن الكريم لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً ومعيناً.

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٠٦.

(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٠٦.

وما ازداد التّحدّى بالقرآن الكريم بعد أربعة عشر قرناً إلاّ رسوخاً وتألّقاً.

ونودّ بشأن الآية الكريمة أن نشير إلى أنّ جملة : «يأتى» جاءت مرتين اثنتين فى الآية الكريمة. والمعروف أنّ جملة «أتى» لا تُستَعْمَل فى القرآن الكريم إلا دليلاً على البعد الزّماني أو المكاني أو النّفسي، وذلك بعكس جملة : «جاء» تماماً فإنها تدلّ على القرب. كما نودّ أن نشير إلى القول : «ظهيرا» دليلاً على المساعد والمعين. ولهذه اللّفظة علاقةٌ بالظّهر. والمعروف أنّ فقار الظّهر أقوى أنواع العظام فى الجسد، وأنّ العظم أقوى أجزاء الجسد بدليل تأخّر العظام بعد الموت عن سائر الجسد فى تسرّب البلى إليها. ودليلاً على أنّ فقار الظّهر أقوى أنواع العظام فى الجسد قدرة الإنسان ـ مثلا ـ على أن يحمل على ظهره بأكثر ممّا يستطيع حمله على رأسه مثلا. هذا إلى أنّ العرب أطلقوا لفظة الظّهر على الدّابّة الّتى يركبونها إيماءً إلى أنّ الظّهر موطن القوّة من الجسد، وإلى كونه ميزان الصّحّة أو مقياسها فى الجسد، بمعنى أنّ الظّهر إذا صلح صلح الجسد فى مجال المحسوسات، وإذا فسد الظّهر فسد الجسد. وتكاد هذه الحقيقة تسرى على جسد الإنسان.

والآية الكريمة تشير إلى مجموعةٍ من الأمور الممتنعة أو المستحيلات. ومابُني على الممتنع والمستحيل ممتنع ومستحيل. إنّ الآية الكريمة تشير إلى هذه المستحيلات فى هيئة اجتماع جميع الإنس الّذين يُبْصَرون وجميع الجنّ الّذين لا يُبْصَرون فى صعيدٍ واحدٍ من أجل غايةٍ واحدة هى أن يأتوا بمثل هذا القرآن الكريم والكتاب العزيز. وأنّى للإنس أن يجتمعوا ويتّفقوا. وأنّى للجنّ أن يجتمعوا ويتفقوا . وأنّى للإنس والجنّ أن يجتمعوا ويتّفقوا . وأنّى للإنس والجنّ أن يكون بعضهم لبعضٍ ظهيراً ومعيناً فلا يشذّ من الفريقين أحد من أجل الإتيان بمثل هذا القرآن الكريم. إنّ هذه المستحيلات كلّها لو فُرض أنّها قد تحقّقت فإنّ التّحدّي بالقرآن الكريم يظلّ قائماً ولن يستطيعوا مجتمعين أن يأتوا بمثل هذا القرآن الكريم فكيف بهم وهم متفرّقون مختلفون متنافرون طبعاً وسجيّة، خَلْقاً وخُلُقا. ولا يخفى دور جملتى : ﴿أن يأتوا﴾ و : ﴿لا يأتون بمثله﴾ فى تأكيد التّحدّى. إنّهم لن يستطيعوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولا بمثل أصغر سورةٍ من سوره كسورة الكوثر مثلاً.

(١٠)

« إصرار الكافرين على عدم إدراك الحكمة من كون الرّسول واحداً من البَشَر، وعلى الضّلال وإنكار البعث »

الآيات (٨٩ـ١٠٠)

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾

ولقد صّـرفنا : ولقد بيّنّا [١] والصّـرف : ردّ الشّيء من حالة إلى حـالة أو إبداله بغيره. والتّـصريف كالصّرف إلاّ فى التّكثيـر. ومنه تصريف الرّيّاح ، بمعنى صرفها من حال إلى حال [٢].

فأبى أكـثّر النّاس إلاّ كـفوراً : فأبى أكـثر النّاس إلاّ جحـوداً للحقّ وإنكاراً لحجج الله وأدلّته [٣] .

فى أسلوب القَسَم تَقـرّر الآية الكريمة أنّ ربّ العزّة والجـلال، صرّف للنّاس فى هذا القرآن ضروب القول، وبيّن لهم فـى هذا الكتاب العزيز أنواع الأساليب، الّتى يُنَزَّل كلّ قـولٍ منها وأسلوب، منزلة المثل. لذا يجـرى القرآن الكريم خـفيـفاً على ألسنة المؤمنين، وقد تغلـغل فى أعماق النّفوس، وتسلّل إلى شـغاف القلوب برشيق لفظه ولطيف نظمه، وملك العقول بصحيح معناه وفصوص حكمه.

أمّا الكافـرون من النّاس وما أكـثرهم، فقـد أبوا إلاّ كفـورا، وأصرّوا على الإعراض عن تلك الآيات، وعن دين الاسلام كمـا أصروا على صدّ الآخرين عن سواء السّبيل.

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٠٧.

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «صرف» ٢٧٩.

(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٠٧.

وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾

سبب النّزول

سببُ نزول الآية الكريمة حتّى الآية الكريمة الثّالثة والتّسعين إصرارُ كفّار مكّة على كفرهم، وفشلهم فى إغراء المصطفى ﷺ بشتّى المغريات من أجل أن يكفّ عن الدّعوة إلى التّوحيد وشتم آلهتهم وتسفيه أحلامهم، وحرصُهُمْ على إلحاق العنت والمشقّة به عليه الصّلاة والسّلام (١) .

حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا : حتّى تفجر لنا من أرضنا هذه عيناً تَنْبُع لنا بالماء. والينبوع، يفعول من قول القائل : نَبَع الماء إذا ظهر وفار يَنْبُع (٢) .

تقرّر الآية الكريمة أنّ أساطين الكفر فى مكّة قالوا للمصطفى ﷺ بصريح اللّفظ : لن نؤمن لك يا محمّد حتّى تَفْجُرَ لنا من أرضنا أرض مكّة المكرّمة ذات الوادى غير ذى الزّرع بسبب قلّة الماء فى المقام الأوّل، حتّى تفجر لنا من أرض مكّة عيناً ينبُع منها الماء ويجرى .

أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾

جنّة : بستان (٣) .

خلالها : وسطها (٤) .

---

(١) انظر مثلاً أسباب النّزول للواحدى النّيسابورى ٣٨٨ـ٣٤١.

(٢) انظر تفسير الطّبرى ١٥/ ١٠٧.

(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٠٧.

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «خل» ١٥٣.

يواصل كفّار مكّة تعنّتهم بطلب المزيد من المعجزات المحسوسة بعد انصرافهم عن آية القرآن الكريم العظمى. إنّهم بعد طلب الينبوع يطلبون من المصطفى ﷺ أن تكون له فى أرض مكّة المكرّمة جنّةٌ مشتملةٌ على أكرم نبتتين أو شجرتين عند العرب، وهما النّخيل والأعناب، دليلاً على ما وراءهما من بقيّة الأشجار والثّمار. ولمّا كانت الجنّة أو البستان بحاجةٍ إلى الماء المتدفّق الغزير، فإنّ الكافرين يذكرون هذا المتعلَّق الضّروريّ ويطلبون منه عليه الصّلاة والسّلام أن يفجّر الأنهار وسط تلك الجنّة تفجيرا.

أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا
زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾

كسفاً : عن ابن عبّاس : قوله : ﴿أو تسقط السّماء كما زعمت علينا كسفاً﴾ يعنى قطعا [١] والمفرد كِسْفة على وزن قطعة [٢].

قبيلا : «معنى ذلك : أو تأتى بالله والملائك عِياناً نقابلهم مقابلةً فنعاينهم معاينة» [٣].

تمادياً فى التّعنّت، وإيغالاً فى الاستهزاء، يطلب كفّار مكّة من المصطفى ﷺ أن يأتي بالدّليل على صدقه أنّه رسول ربّ العالمين بأن يسقط عليهم السّماء قطعاً كما زعم عليه الصّلاة والسّلام حسب ادّعائهم ، أو أن يأتي بالله تعالى وبالملائكة الكرام كي يراهم كفّار مكّة عِياناً ويقابلوهم وجهاً لوجه دليلاً على أنّ محمّداً ﷺ

(١) تفسير الطّبرى ١٥/١٠٨
(٢) انظر مفردات الراغب الأصفهانى «كسف» ٤٣١.
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/١٠٨ و انظر مفردات الراغب الأصفهانى : «قبل» ٣٩٢.

صادقٌ فيما يدّعى.

وليس بخاف تمادى كفّار مكّة فى غيّهم وتحوّلهم المطّرد إلى طلب الآيات الأشدّ صعوبةً دليلاً على تعنّتهم واستهزائهم.

وإنّ طلب سقوط السّماء عليهم قطعاً من قبيل الحُمْق بل الجنون الّذى اتّصفوا به والّذى أومأ إليه مثل هذا القول عنهم فى سورة الأنفال[1] : ﴿وإذ قالوا اللّهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارةً من السّماء أو ائتنا بعذابٍ أليم﴾ إنّهم بدلاً من سؤالهم الهداية من ربّ العالمين يطلبون سقوط الحجارة من السّماء عليهم فى هيئة المطر أو مجىء العذاب الأليم اليهم من الله تعالى!.

أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ ۖ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾

من زخرف : عن ابن عبّاس : ﴿أو يكون لك بيتٌ من زخرف﴾ يقول : بيتٌ من ذهب[2].

أو ترقى فى السماء : أو تصعد فى درج إلى السّماء. وإنّما قيل : ﴿فى السّماء﴾ وإنّما يرقى إليها لا فيها، لأنّ القوم قالوا : أو ترقى فى سلّمٍ إلى

---

(١) الآية ٣٢.

(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٠٩.

السّماء، فأدخلت فى فى الكلام ليدلّ على معنى الكلام. يقال رَقيتُ فى السّلّم فأنا أَرْقَى»[1] رَقْياً ورُقِيّاً إذا صَعِدْت[2].

ولن نؤمن لرقيّك حتّي تنزّل علينا كتاباً نقرؤه : ولن نصدّقك من أجل رقيّك إلى السّماء حتى تنزّل علينا كتاباً منشوراً نقرؤه، فيه أَمْرُنا باتّباعك والإيمان بك[3] عن مجاهد قوله : ﴿كتاباً نقرؤه﴾ قال : من ربّ العالمين إلى فلانٍ عند كلّ رجلٍ صحيفةٌ تصبح عند رأسه يقرؤها[4].

قل سبحان ربّى : تنزيهاً لله عمّا يصفونه به وتعظيماً له من أن يؤتى به وملائكته، أو يكون لى سبيلٌ إلى شيءٍ ممّا تسألونيه[5].

يواصل كفّار مكّة عنادهم وتعنّتهم فيطلبون من المصطفى ﷺ، إن لم يلب اقتراحاتهم السّابقة، ويسألونه أن يكون له بيتٌ من ذهبٍ دليلاً على إغناء الله تعالى إيّاه وعدم حاجته إلى العمل أو الضّرب فى الأسواق ابتغاء فضل الله تعالى، أو أن يصعد أمام أعينهم فى درجات سلّم إلى السّماء دليلاً على صدقه عليه الصّلاة والسّلام. ولا يكفى الصّعود إلى السماء دليلاً على الصّدق بل لابدّ من إنزال كتابٍ عليهم كي يقرؤوه ويجدوا فيه الدّليل على صدقه عليه الصّلاة والسّلام بأنّه رسولٌ ربّ العالمين.

وتجاه هذا التّعنّت من كفّار مكّة والاستهزاء يأمر ربّ العزّة والجلال حبيبه ﷺ بأن يقول للمشركين : تنزيهاً لربّى جلّ وعلا عمّا يصفون، وتعظيماً له ممّا ألحقه به الظّالمون واقترحوا من آياتٍ ومعجزات، ليس طلبهم لها بباعث المزيد من البيان والتّوضيح ولكن بباعث التّعنّت والاستهزاء. هل كنت أنا محمّد بن عبد الله إلاّ بشراً يأكل الطّعام، رسولاً اصطفاني الله تعالى بنعمة الرسالة محض فضلٍ

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٠٩.
(٢) لسان العرب : «رقا».
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٠٩.
(٤) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٠٩.
(٥) تفسير الطّبرى ١٥/ ١١٠.

منه تعالى. إنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى يختار الآية أو الآيات الّتى يؤمن بمثلها البشر، وليس البشر هم الذين يقترحون أو يختارون.

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ
ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّه ما منع أكثر النّاس أن يؤمنوا ويدخلوا فى دين الإسلام، إذ جاءهم الهدى من ربّهم جلّ وعلا بواسطة محمّد ﷺ إلاّ أن قالوا متعجّبين منكرين : ﴿أبعث الله بشراً رسولا﴾ ؟ وإنّ لسان حالهم بل مقالهم ليفصح بأنّ مهمّة الرّسالة ينبغى أن يضطلع بها واحدٌ من الملائكة الكرام وليس واحداً من البشر الّذين يأكلون الطّعام.

والآية الكريمة التّالية تلقّن المصطفى ﷺ الرّدّ على القوم المنكرين المتعجّبين.

قُل لَّوْ كَانَ
فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾

كفّار مكّة من باب التّعنّت يعلنون أنّ الرّسالة ينبغى أن يقوم بها الملائكة وليس البشر، وفى حال كون الرّسول واحداً من البشر هو بحاجةٍ إلى المَلَك أو الملائكة الّتى تشهد أنّ الله تعالى أرسله، وقد اقترن بمثل هذا الإعلان أو العنت مجموعةٌ من الاقتراحات إلى الحدّ الّذى طلب كفّار مكّة معه أن يأتي النّبيُّ ﷺ بالله تعالى وبالملائكة عِياناً للشّهادة بأنّ محمّداً ﷺ رسول ربّ العالمين. ومن البيّن أنّ بعض الاقتراحات يعلم كفّار مكّة أنّها يستحيل تحقيقها. أمّا ما يمكن تحقيقه منها فإنّها تقلّ عن آية القرآن الكريم فى مجال الإقناع. وتجاه إلحاح كفّار مكّة على الملائكة رسلاً أو شهوداً تأمر الآية الكريمة الّتى نحن بصددها النّبيّ ﷺ بأن يقول

للمشركين : لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنّين كما يمشى كفّار مكّة على الأرض مطمئنين، وكان الّذى يسكن الأرض الملائكة وليس البشر، لنزّل الله تعالى عليهم من السّماء ملكاً رسولاً. إنّ الرّسول يجب أن يكون من جنس المرسل إليهم كي يتحقّق الهدف من الرّسالة وهو الفهم عن الرّسول والإستجابة له والعمل بالتّعاليم الموحى اليه بها من ربّ العالمين. ولمّا كان سكّان الأرض بشراً لذا لزم أن يكون الرّسول واحداً من البشر للحكمة ذاتها.

قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ
شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ بأن يقول للكافرين المستكثرين الرّسالة على البشر، والّذين جاء على لسانهم فى أسلوب الإنكار القول : ﴿أبعث الله بشراً رسولاً﴾ وبأن يعلن المصطفى ﷺ على رءوس الأشهاد : كفى بالله تعالى شهيداً، هكذا فى صيغة المبالغة، بينى وبينكم أيّها المشركون المكذّبون. إنّ الله سبحانه وتعالى الشّهيد بأنّى رسوله كان دائماً وأبداً بعباده خبيراً ببواطنهم، بصيراً بظواهرهم، فلا يخفى على الله تعالى شىءٌ فى الأرض ولا فى السّماء، وممّا أحاط الله تعالى به علماً حقيقة البواعث لكم على تكذيبى وطلب عنتى ومشقّتى مع استيقان نفوسكم أنّى رسول ربّ العالمين. ويلاحظ أنّ ما أومأت إليه الآية الكريمة هنا صرّحت به الآية الكريمة الثانية بعد المائة من السورة الكريمة على لِسان موسى عليه السّلام خطاباً لفرعون الطّاغية، والمعروف أنّ وجه الشّبه كبير بين ملابسات الدّعوة المحمّديّة والدّعوة الموسويّة على صاحبيهما أفضلُ الصّلاة وأتَمُّ التّسليم.

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ
مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا
وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾
ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا
وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ الّذى يهديه الله تعالى بأن يزيده هدىً على هداه هو المهتدى على الحقيقة، وأنّ الّذى يضلله الله تعالى هو الضّالّ على الحقيقة، وهو الّذى لن تجد له أيّها الرّسول الكريم وأيّها الإنسان أولياء ونصراء من دونه عزّ وجلّ. وأولئك الضّالّون يحشرهم الله تعالى يوم القيامة على وجوههم عمياً وبُكْماً وصمّاً بسبب إصرارهم فى الحياة الدّنيا على عدم إبصار نور الحقّ، وعدم النّطق به والدّعوة إليه، وعدم سماع دعوة الحقّ سماع تدبّر. إنّ مأواهم جهنّم ومثواهم النّار، كلّما خَبَتْ وسكنت زادها الله اشتعالاً وتأجّجا.

والآية الكريمة الأخرى تقرّر أنّ ذلك جزاؤهم بسبب أنّهم كفروا بآيات الله تعالى وقالوا فى أسلوب الاستفهام الإنكاريّ : أئذا كنّا بعد الموت عظاماً، وغدت عظامنا فتاتاً، أئنّا لمبعوثون يوم القيامة خلقاً جديداً !.

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أنّه قيل لرسول الله ﷺ : كيف يُحْشَر النّاس على وجوههم؟ قال : الّذىَ أمشاهم على أرجلهم قادرٌ على أن يمشيهم على وجوههم. وأخرجاه فى الصّحيحين (١) .

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٦٥.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ
الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ
وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾

إنّ خلق السّماوات والأرض أكبر من خلق النّاس. قال عزّ من قائل [1]: ﴿لخَلْقُ السّماواتِ والأرضِ أكبر من خلق النّاس ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون﴾ وإنّ الّذى خلق السّماوات والأرض والنّاس ابتداءً قادرٌ على أن يخلق النّاس عودة. وإلى هذا المعنى أومأت الآية الكرية الّتى سألت فى إنكار: أو لم يعلم الكافرون أنّ الله سبحانه وتعالى الّذى خلق السّماوات والأرض وأبدعهما على غير مثالٍ سابقٍ قادرٌ على أن يخلق يوم القيامة مثلهم من الأناسيّ فى الصّغر! والجواب معروف: بلى قادر. وتقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى جعل لهم أجلاً لا ريب فيه ووقتاً يموتون فيه دون تقديم ولا تأخير، فأبى الظّالمون بعد كلّ هذه الآيات البيّناتِ إلاّ كفورا وإعراضا.

قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ
الْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يقول للكافرين: لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربّى جلّ وعلا، وفضل الله تعالى من رزقٍ ومطرٍ وما إليهما إذاً لأمسكتم أيّها النّاس خشية الإنفاق إلاّ من رحم الله تعالى فوفّقه للإنفاق والعطاء. وكان جنس الإنسان قتوراً وبخيلا، بل وشحيحاً يمنع الآخرين حقوقهم، ومن باب الأحرى والأولى أن يمنعهم حقّه، وذلك هو البُخْل.

---

(١) سورة غافر ٥٧.

(١١)

« نصر الله تعالى موسى عليه السّلام دليلٌ على نصر الله تعالى محمداً ﷺ بدليل دخول أهل الكتاب فى الإسلام، فادعوا الله واحمدوه وكبّروه »

الآيات (١٠١ ـ ١١١)

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ
ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ
إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾

ولقد آتينا موسى تسع آيات بيّنات : واضحات [١] وهي الدّلائل القاطعة على صحّة نبوّته وصدقه فيما أخبر به عمّن أرسله إلى فرعون [٢] قال ابن عبّاس ومجاهد وعكرمة والشّعبيّ وقتادة : هي يده وعصاه والسّنين ونقص الثّمرات والطّوفان والجراد والقمّل والضّفادع والدّم. وهذا القول ظاهرٌ جليٌّ حسنٌ قويّ [٣] وقال ابن عبّاس : السّنين فى أهل البوادى، ونقص من الثّمرات لأهل القرى [٤] .

فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم : فاسأل يامحمّد بنى إسرائيل إذ جاءهم موسى [٥].

مسحوراً : مخدوعاً مغلوباً على عقلك [٦].

تقرّر الآية الكريمة أنّ ربّ العزّة والجلال قد آتى موسى عليه السّلام تسع آيات بيّنات، وحججٍ مقنعات، وأنّ محمّد بن عبد الله ﷺ يستطيع أن يسأل فى هذا الشّأن بنى إسرائيل، الّذين كانوا يسكنون آنذاك منطقة المدينة المنوّرة، باعتبارهم ذرّيّة بنى إسرائيل قوم موسى عليه السّلام، إذ جاءهم موسى عليه السّلام، ودعا فرعون وآله. لقد قال فرعون مصر الطّاغية لموسى عليه السّلام : إنّى لأظنّك ياموسى رجلاً مسحوراً مغلوباً على قواك العقليّة بقوىً خفيّةٍ شرّيرة! .

وآيات موسى عليه السّلام التّسع جاء ذكرها كاملةً على جهة التّفصيل فى

---

(١) الجلالين.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٦٦.
(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٦٦ وانظر تفسير الطّبرى ١٥/ ١١٥.
(٤) تفسير الطّبرى ١٥/ ١١٦.
(٥) تفسير الطّبرى ١٥/ ١١٦.
(٦) الجلالين.

سورة الأعراف. لقد جاء النّصّ على آيتي العصا واليد فى قول الحقّ جلّ وعلا [1] : ﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين. ونزع يده فإذا هي بيضاء للنّاظرين﴾ وجاء النّصّ على آيتي السّنين ونقصٍ من الثّمرات فى قول الحقّ جلّ وعلا [2] : ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسّنين ونقصٍ من الثّمرات لعلّهم يذّكرّون﴾ وجاء النّصّ على الآيات الخمس الباقيات تمام التّسع فى قول الحقّ جلّ وعلا [3] : ﴿فأرسلنا عليهم الطّوفان والجراد والقمّل والضّفادع والدّم آيات مفصّلاتٍ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾.

ومن البيّن أنّ ثمّة تشابهاً فى المعانى بين أو السّورة الكريمة وبين آخرها ههنا. إنّ فى كلٍّ من الموضعين حديثاً عن محمّد بن عبد الله ﷺ والقرآن الكريم وملابسات الدّعوة المحمّديّة، وعن موسى عليه السّلام الّذى آتاه الله تعالى الكثير من الآيات البيّنات ومنها الآيات التّسع، ومنها التّوراة، وعن ملابسات الدّعوة الموسويّة. ولا يخفى أنّ فى الحديث عن موسى عليه السّلام وملابسات دعوته عليه السّلام المشابهة للدّعوة المحمّدية نوعاً من التّسلية للمصطفى ﷺ وتثبيت الفؤاد.

قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ
هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ
يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾

بصائر : واحدتها بصيرة [4] ويعنى بالبصائر الآيات أنّهن بصائر لمن استبصر بهنّ، وهدىً لمن اهتدى بهنّ [5] .

---

(١) سورة الأعراف ١٠٧و١٠٨.
(٢) سورة الأعراف ١٣٠.
(٣) سورة الأعراف ١٣٣.
(٤) تفسير الطّبرى ٩/ ١١٠ و١٥/ ١١٧.
(٥) تفسير الطبرى ١٥/ ١١٦.

مثبورا : هالكا[1] .

قال موسى عليه السّلام لفرعون الطّاغية لقد علمت ما أنزل هؤلاء الآيات البيّنات والحجج الدّامغات إلاّ ربّ السّماوات والأرض، يستبصر بهنّ من حرص على معرفة الحقّ، ويهتدى بهنّ من جاهد فى الله تعالى واجتهد فى سلوك سبيل الهدى. وفى مقابل القول على لسان الطّاغية : ﴿إنّى لأظنّك يا موسى مسحورا﴾ يجىء على لسان موسى عليه السّلام القول : ﴿وإنّى لأظنّك يافرعون مثبورا﴾ والمعنى وإنى لأعتقد أنّك يافرعون رجلٌ هالكٌ لا محالة بسبب إصرارك على الكفر والصّدّ عن سبيل الله تعالى.

والآية الكريمة تأخذ بسببٍ من قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة النّمل[2] : ﴿فلمّا جاءتهم آياتنا مبصرةً قالوا هذا سحرٌ مبين. وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً. فانظر كيف كان عاقبةُ المفسدين﴾.

فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ فرعون مصر الطّاغية أراد أن يستفزّ موسى عليه السّلام ومن معه من أرض مصر ويزعجهم ويخرجهم منها. ولمّا كان فرعون قد تمكّن بإذن الله تعالى من إخراج موسى عليه السّلام وقومه من أرض مصر فقد حقّت على فرعون وملئه كلمة العذاب، وجرت عليهم سنّة الله تعالى بإهلاك من أخرج نبيّ الله تعالى وقومه من بين ظهرانَيْهِمْ. لقد أغرق الله تعالى فرعون ومن معه أجمعين فى البحر الأحمر حينما تتبّعوا موسى عليه السّلام وقومه باتّجاه الشّرق حتّى اعترضهم البحر فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السّلام أن يضرب البحر بعصاه فكان الطّريق يَابِساً جافّاً بإذن الله تعالى. وحينما سلك فرعون وقومه الطّريق فى

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١١٧ وتفسير ابن كثير ٣/ ٦٧ والجلالين.
(٢) الآية ١٣و١٤.

البحر أغرقهم الله تعالى جميعاً بالماء المِلْح.

ووجه الشّبه كبيرٌ بين هذه الآية الكريمة وبين الآية الكريمة السّادسة والسّبعين من السّورة الكريمة. جاء خطاباً للمصطفى ﷺ قول الحقّ جلّ وعلا [1] : ﴿وإن كادوا ليستفزّونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلا﴾.

ومن البيّن أنّ ربّ العزّة والجلال لم يمكّن كفّار مكّة مِنْ إزعاج النّبيّ ﷺ وإخراجه من مكّة المكرّمة. ومن البيّن كذلك أنّ النّصّ على إغراق الله تعالى فرعون وقومه فيه تثبيتٌ لفؤاده عليه الصّلاة والسّلام وتطمينه إلى أنّ النّصر حليفه بإذن الله تعالى كما كان حليف موسى عليه السّلام.

وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

وقلنا من بعده : وقلنا لهم من بعد هلاك فرعون [2] .

اسكنوا الأرض : أرض الشّام [3].

فإذا جاء وعد الآخرة : فإذا جاءت السّاعة وهي وعد الآخرة [4] .

جئنا بكم لفيفا : حشرناكم من قبوركم إلى موقف القيامة لفيفا، أي مختلطين قد التفّ بعضكم على بعض [5] منضمّاً بعضكم إلى بعض : يقال : لففت الشّيء لفّا، وجاءوا ومن لفّ لَفَّهم أي من انضمّ إليهم [6] .

---

(١) سورة الإسراء ٧٦.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١١٧.
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ١١٧.
(٤) تفسير الطّبرى ١٥/ ١١٧.
(٥) تفسير الطّبرى ١٥/ ١١٧.
(٦) مفردات الراغب الأصفهانى : «لفف» ٤٥٢.

بعد أن أغرق الله تعالى فرعون الطّاغية قال الله تعالى لبنى إسرائيل اسكنوا أرض الشّام الّتى اتجهتم من مصر إليها. فإذا جاء وعد الحياة الآخرة وقيام السّاعة جاء الله سبحانه وتعالى بكم جميعاً، وضمّ بعضكم إلى بعض، وحاسبكم أجمعين، فأثابكم أو عاقبكم.

وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾

من البيّن أنّنا بصدد جملة أنزل المتعدّيّة فى القول : ﴿وبالحق أنزلناه﴾ فثمّة غايةٌ يصل إليها القرآن وهدفٌ يحقّقه. وتلك الغاية وذلك الهدف هو الحقّ. وهذا الحقّ الّذى يهدف القرآن الكريم إلى تحقيقه هو الهداية إلى الطّريقة الّتى هي أقوم، والّتى تُحَقِّق بإذن الله تعالى وبفضله السّعادة فى الدّارين.

ومن البيّن كذلك أننا بصدد جملة نزل اللّازمة فى القول : ﴿وبالحقّ نزل﴾ فالقرآن الكريم نزل بالحقّ المصاحب له المشتمل عليه. وبهذا يكون القرآن الكريم حقّاً، لأنّه متضمّنٌ ذلك الحقّ ومشتملٌ عليه : ﴿وبالحقّ نزل﴾ كما يكون الحقّ غاية القرآن الكريم الّتى يسعى إلى تحقيها : ﴿وبالحقّ أنزلناه﴾ ما أعظم هذا الكتاب العزيز الّذى يهدف إلى الحقّ من ناحية، ويشتمل على الحقّ من ناحيةٍ أخري.

وعلى غرار المعنيين اللّذين يشتمل عليهما صدر الآية الكريمة يشتمل العجز على معنيين اثنين كذلك. فالمصطفى ﷺ إنّما أرسله الله تعالى وجعل القرآن الكريم معجزته الكبرى الخالدة من أجل تبشير المؤمنين بالجنّة والنّعيم المقيم، وإنذار الكافرين بالنّار والعذاب الأليم.

وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾

وقرآنا فرقناه : أحكمناه وفصّلناه وبيّناه[١] وبيّنّا فيه الأحكام وفصّلناه[٢] ابن عبّاس : وقرآناً فرقناه، يقول : فصّلناه[٣] والفَرْقُ يقارب الفَلْق. لكن الفلق يقال اعتباراً بالانشقاق. والفرق يقال اعتباراً بالانفصال قال[٤] : ﴿وإذ فرقنا بكم البحر﴾[٥] .

على مكث : على تؤدة فترتّله وتبيّنه ولا تعجل فى تلاوته فلا يفهم عنك[٦].

ونزلناه تنزيلا : فرّقنا تنزيله وأنزلناه شيئاً بعد شيء[٧] .

تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى وضّح فى هذا القرآن الكريم المعانى، وفصّل الأحكام، وبيّن الحلال والحرام، وأنزله مفرَّقا[٨] لتقرأه على النّاس، أيّها الرّسول الكريم، والنّبيّ العظيم، على مُكثٍ وثبات وانتظار[٩] وتؤدة وتريُّثٍ وبطء، كي يُفْهَم عنك معانيه، وكي تطبّق تعاليمه وتنفّذ أحكامه. ونزّلنا القرآن الكريم شيئاً بعد شيء خلال ثلاثٍ وعشرين سنة[١٠] من أجل هذه الغاية الحميدة.

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١١٨.
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «فرق» ٣٧٨.
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ١١٨.
(٤) سورة البقرة ٥٠.
(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «فرق» ٣٧٧.
(٦) تفسير الطّبرى ١٥/ ١١٩.
(٧) تفسير الطّبرى ١٥/ ١١٩.
(٨) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «فرق» ٣٧٨.
(٩) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «مكث» ٤٧١.
(١٠) تفسير ابن كثير ٣/ ٦٨.

قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾

يخرّون للأذقان : الأذقان جمع ذَقَن وهو مجمع اللّحيين[1] واللّحي، بالفتح، منبت اللّحية ، بالكسر، واللّحية شَعَر الخدّين والذَّقَن[2] والذَّقَن، بالتّحريك، مُجْتمَع اللّحيين من أسفلهما ويُكْسَر، مذكّر، والجمع أذقان[3] .

إن كان : إن مخفّفة من الثقيلة واجبة الإهمال[4] .

يخرّون للأذقان سجّداً : خرّ بمعنى سقط سقوطاً يُسْمَع منه خرير. والخرير يقال لصوت الماء والرّيح وغير ذلك ممّا يسقط من علوّ. واستعمال الخرّ تنبيهٌ على اجتماع أمرين، السّقوط وحصول الصّوت منهم بالتّسبيح[5] .

تأمر الآية الكريمة الأولى المصطفى ﷺ بأن يقول لأولئك الكافرين الصّادّين عن سبيل الله تعالى المعرضين عن القرآن الكريم المقترحين مجموعةً أخرى من الآيات غير القرآن الكريم، بأن يقول لأولئك : آمنوا بالقرآن الكريم، وهذا أمر، أو لا تؤمنوا، وهذا نهي. والمعنى أنّ إيمانكم وكفركم سيّان، لأنّ الله تعالى غنيٌّ عنكم إن آمنتم أو كفرتم ولأنّ ثواب الإيمان وعقاب الكفر عائدان إليكم.

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٢٠.

(٢) انظر القاموس المحيط : «اللّحية».

(٣) انظر القاموس المحيط :«الذّقن».

(٤) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٨/ ١٠٧.

(٥) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «خرّ» ١٤٤.

وتَضْرِب الآية الكريمة عن المشركين الذّكر صفحاً، وتتحوّل إلى أهل الكتاب من اليهود والنّصارى، الّذين آتاهم الله تعالى العلم من قبل فى هيئة الكتابين السماويّين قبل التّحريف، التّوراة الّتى أوحاها الله تعالى إلى موسى عليه السّلام، والإنجيل الّذى أوحاه الله تعالى إلى عيسى عليه السّلام. إنّ هؤلاء الّذين آتاهم الله تعالى العلم وعلموا أنّ محمّد بن عبد الله ﷺ هو الرّسول النّبيّ الأمّيّ الّذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التّوراة والإنجيل فآمنوا به واتبعوا النّور الّذى أنزل معه فإذا تُتْلى عليهم آيات القرآن الكريم يخرّون للأذقان سجّدا ، هم يبادرون إلى السّقوط باتّجاه السّجود لله ربّ العالمين، تسبق أذقانُهم وجوههم الّتى يضعونها على الأرض ساجدين لله تعالى، ممتلئةً قلوبهم بالإيمان، لاهجةً ألسنتهم بالحمد والثّناء والتّسبيح.

والآية الكريمة الثّانية تبيّن المعنى المرتبط بجملة : ﴿يخرّون﴾ وراء السّقوط وهو الصّوت المقترن بالسّقوط. وهذا الصّوت هو الّذى يجسّده قول الواحد منهم : سبحان ربّي الأعلى. وهم وراء ذلك يقولون ويعلنون على رءوس الأشهاد : حقّاً إنّ وعد ربّنا جلّ وعلا بإرسال خير الأنام ﷺ وإنزال آخر الكتب السّماويّة وأشرفها ذلك الكتاب العزيز الّذى تبيّنه سنّة المصطفى ﷺ كان وعداً مفعولاً. ومن البيّن أنّ القوم الآن من أمّة محمّد بن عبد الله ﷺ.

والآية الكريمة الثّالثة تبيّن مايقترن بمبادرة هؤلاء المسلمين لله ربّ العالمين إلى السّجود. إنّهم حينما يخرّون للأذقان يبكون ويزيدهم القرآن الكريم الّذى يتلونه فى الصّلاة وغير الصّلاة خشوعاً وخضوعاً لله تعالى وإذعانا.

قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾

سبب النّزول. رُوي أنّ رجلاً من المشركين سمع النّبيّ ﷺ وهو يقول فى سجوده : يارحمن يارحيم. فقال : إنّه يزعم أنّه يدعو واحداً وهو يدعو اثنين. فأنزل الله هذه الآية(١) وروي هذا عن ابن عبّاس أيضا(٢) وروى الإمام أحمد عن ابن عبّاس أنّه قال : نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ متوارٍ بمكة : ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾ قال : كان إذا صلّى بأصحابه رفع صوته القرآن، فلمّا سمع ذلك المشركون سبّوا القرآن وسبّوا من أنزله ومن جاء به. قال : فقال الله تعالى لنبيّه ﷺ : ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبّون القرآن : ﴿ولا تخافت بها﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتّى يأخذوه عنك : ﴿وابتغ بين ذلك سبيلا﴾ وأخرجاه فى الصّحيحين(٣).

الحُسنى مؤنّث الأحسن(٤).

ولا تخافت بها : لا تخفض صوتك حتّى لا تُسْمع أذنيك(٥).

وابتغ بين ذلك سبيلا : اطلب بين الإعلان والجهر وبين التّخافت والخفض طريقاً لا جهراً شديداً ولا خفضاً لا تسمع أذنيك(٦).

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٦٨ وتفسير الطّبرى ١٥/ ١٢١ وأسباب النّزول للواحدى النّيسابورى ٣٤١.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٦٨ وتفسير الطّبرى ١٥/ ١٢١ .
(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٦٨ .
(٤) الجلالين فى تفسير الآية ١٨٠ من سورة الأعراف.
(٥) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٢٣.
(٦) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٢٣.

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ بأن يقول للمشركين الّذين أنكروا عليه ﷺ أن يقول يا أللّه يارحمن بأن يدعوا الله تعالى قائلين يا أللّه يارحمن، وبأن يدعوا الله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، بأيّ من أسمائه الحُسْنى جلّ وعلا. إنّ لله تعالى تسعةً وتسعين اسماً، مائة إلاّ واحدا، من أحصاها دخل الجنّة، كما جاء فى الحديث الصّحيح [1] وقد أشار العلماء إلى أنّ هذا الرّقم الّذى جاء فى الحديث لا يراد به الحصر فإنّ أسماء الله تعالى الحُسْنى تزيد على هذا الرّقم كثيرا[2].

والمعروف أنّ لله تعالى اسماً واحداً هو لفظ الجلالة : الله. أمّا الأسماء الأخرى فإنّها صفاتٌ لله تعالى. ويأتى على رأس هذه الصّفات لفظ : الرّحمن. وبذلك تنصّ الآية الكريمة على عظيم أسماء الله تعالى : الله، وعلى عظيم صفاته جلّ وعلا : الرّحمن.

والآية الكريمة فى شقّها الآخر تنهى المصطفى ﷺ أن يجهر بصلاته فى مكّة المكرّمة فيسمع المشركون القرآن الكريم فيسبّوا الله تعالى عدواً بغير علم، أو أن يهمس بصلاته فلا يسمع المسلمون القرآن الكريم الّذى يحرصون على سماعه. كما تأمره عليه الصّلاة والسّلام بأن يسلك فى تلاوة القرآن الكريم الطّريق الوسط لدفع أذى المشركين وإيصال الخير للمسلمين.

---

(١) انظر مثلاً تفسير ابن عطيّة ٦/ ١٥٦ . وتفسير ابن كثير ٢/ ٢٦٨ وفتح البارى ١١/ ٢١٤ حديث رقم ٦٤١٠.

(٢) انظر مثلاً تفسير القرطبى ٢٧٦١ وتفسير ابن كثير ٢/ ٢٦٩.

وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن
لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

أثبتت الآية الكريمة السّابقة للذّات العليّة الأسماء الحسنى. وتنفى هذه الآية الكريمة التّالية النّقائص عن الذّات العليّة. إنّ الآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ ابتداءً، كلّ مسلمٍ لله تعالى ربّ العالمين تبعاً، بأن يقول : الحمد لله تعالى والثّناء كلّه له عزّ وجلّ الّذى لم يتخذ ولداً ولا صاحبةً، والّذى لم يولد، والّذى لم يكن له شريكٌ فى المُلْك : ﴿إذاً لذهب كلّ إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض. سبحان الله عمّا يصفون﴾[1] والّذى لم يكن له وليٌّ وناصرٌ ومعين من الذّلّ. ولكنّه الله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، العزيز الكبير المتعال، فكبّره يامحمّد ويامسلم وقل : الله أكبر، الله أكبر. والمعنى أنّ الله تعالى أكبر من كلّ كبير.

جاء فى حديث أنّ رسول الله ﷺ سمّى هذه الآية آية العز[2].

وعن قتادة : ذُكِرَ لنا آنّ نبيّ الله ﷺ كان يعلّم أهله هذه الآية ، الصّغير من أهله والكبير [3].

ومن البيّن التشابه بين موضوعات أوّل السّورة الكريمة وآخرها. وإذا كان آخر السّورة يأمر بالتّكبير فإنّ أوّل السّورة الكريمة يأمر بالتّنزيه. وكلّ هذه الظّواهر من الأدلّة على ترابط المعانى فى السورة المكّيّة الكريمة.

---

(١) سورة المؤمنون ٩١.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٧٠.

(٣) تفسير الطبرى ١٥/ ١٢٦.

ثانيا :

سورة الكهف..

حتى نهاية الجزء
الخامس عشر

سُورَةُ الكَهْفِ

مكية ١٨ — آياتها ١١٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴿١﴾
قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ
يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّاكِثِينَ
فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾
مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ
أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ
عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا
جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا
﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ
أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾
إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً
وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي
الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ
أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ

إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا
عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ
قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم
بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾
وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ
يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا
﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ
ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ
مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن
يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا
وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم
بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ
فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ
لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا
يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟

أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ
طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ
بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ
أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾
وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ
ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟
ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ
أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ
رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا
بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ
بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا
وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ
إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ
إِذَا نَسِيتَ ۖ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا
﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا
﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ

أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ
فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ
رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾
وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ
يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ
أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن
شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ
وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ
ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ
لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ
مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ
فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ۞ وَٱضْرِبْ
لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا
بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ

تَظْلِمْ مِّنْهُ شَيْـًٔا ۙ وَفَجَّرْنَا خِلٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَّكَانَ لَهٗ ثَمَرٌ ۚ فَقَالَ
لِصَاحِبِهٖ وَهُوَ يُحَاوِرُهٗٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَّأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾
وَدَخَلَ جَنَّتَهٗ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهٖ ۖ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هٰذِهٖٓ
أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَّلَئِن رُّدِدتُّ إِلٰى رَبِّى
لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهٗ صَاحِبُهٗ وَهُوَ يُحَاوِرُهٗٓ
أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوّٰىكَ رَجُلًا
﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ
دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠
أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسٰى رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن
جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا
زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهٗ طَلَبًا ﴿٤١﴾
وَأُحِيطَ بِثَمَرِهٖ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلٰى مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ
عَلٰى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهٗ
فِئَةٌ يَنصُرُونَهٗ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ
لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهٖ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ

فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾
الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ
خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى
الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا
عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ
أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ
مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ
لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا
حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا
لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ
أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ
بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا
﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ
فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ
النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ
الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا
إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ
الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ
إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ
لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ
إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ
وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ
الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ
الْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾
وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم
مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ
أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا
مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾
فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا

هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ
ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ
فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا
قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ
عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ
عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ
مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ
سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ
فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا
﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا
لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ
لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا
تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ
قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾

بين يدي التفسير

« الحمد لله الّذى أنزل الكتاب على عبده ليبشّر المؤمنين بالجنّة وينذر الكافرين بالنّار، وليس على الرّسول إلاّ البلاغ »
الآيات (١ ـ ٨)

تبدأ السّورة الكريمة بتقرير أنّ الحمد كلّه لله تعالى الّذى أنزل على عبده محمّد ﷺ الكتاب العزيز الّذى لم يجعل له عوجاً ولا اضطرابا. وسورة الكهف إحدى سورٍ مكيّةٍ خمس تبدأ بالقول : ﴿الحمد لله﴾ وهي الفاتحة والأنعام والكهف وسبأ وفاطر. وبعد أن نَفَى السّياق العِوج عن القرآن الكريم أثبت له الاستقامة على الطّريق القويم والصّراط المستقيم، لكي ينذر عليه الصّلاة والسّلام بهذا الكتاب العزيز عذاباً شديداً من عنده جلّ وعلا، ويبشّر المؤمنين الّذين يعملون الصّالحات أنّ لهم ثواباً طيّباً وأجراً حسناً، ماكثين فيه أبداً فى الجنّة، وذلك على غرار خلود الكافرين فى النّار. ويلاحظ أنّ النِّذارة تتقدّم على البشارة لأنّ أكثر أهل مكّة آنذاك مشركون. ويعود السّياق إلى نِذارة الّذين قالوا اتّخذ الله تعالى ولداً كمشركى العرب واليهود والنّصارى، ويقرّر أنّهم ليس لهم علمٌ ولا لآبائهم، ويستفظع كلمة الكفر الّتى تخرج من أفواههم فما يقولون إلاّ كذباً وزوراً. ولمّا كانت نفس المصطفى ﷺ تكاد تذهب حسراتٍ لإعراض قومه عليه الصّلاة والسّلام عنه فإنّ ربّ العزّة والجلال يسرّى عنه عليه الصّلاة والسّلام وينهاه فى لطف أن يهلك نفسه لشديد أسفه وحزنه على آثار قومه المعرضين عنه، المكذّبين للقرآن الكريم. ولمّا كان هُدى الدّلالة والإرشاد قد تحقّق بفضل الله تعالى بإرسال خير الأنام ﷺ وإنزال أحسن الكلام، وكان الإنسان وراء ذلك مسئولا عن كلّ مايصدر عنه فإنّ السّياق يبيّن حقيقة الحياة الأولى وزينتها فهى متاع الغرور وهي دار العمل، فعلى كلٍّ أن يحسن العمل فيها، من أجل الثّواب فى الآخرة ، والحياة الحقيقيّة فى الجنّة، وإلاّ كان العقاب أليما، والخسارة فادحة.

« قصّة أصحاب الكهف العجيبة رمزٌ للموت والبعث »
الآيات (٩ ـ ١٢)

إذا كانت آيات القسم السّابق تدور حول محور البعث بعد الموت فالثّواب أو العقاب بناءً على الإيمان أو الكفر، عمل الصّالحات أو السّيّئات فى الحياة الأولى، وإذا كان الموت هو النّومة الكبرى، فإنّ آيات هذا القسم التّالى تدور حول نوم أصحاب الكهف نوماً غير عاديٍّ بإذن الله تعالى. والمعروف أنّ النّوم موتةٌ صغرى، فكأنّ نوم أصحاب الكهف وبعثهم صورةٌ مصغرةٌ للنّومة الكبرى أعنى الموت والبعث يوم القيامة لفصل الحساب. وإنّ آيات القسم الأربع تقدّم قصّة أصحاب الكهف موجزةً مع التركيز على الباعث لهم على اللّجوء إلى الكهف وهو الفرار بدينهم، وعلى الحكمة من القصّة وهي الإيمان بالبعث والعمل لما بعد الموت. إنّ السّياق يسأل المصطفى ﷺ : بل أحسبت يامحمّد أنّ أصحاب الكهف والكتاب المدوّن فيه قصّتهم كانوا أعجب آياتنا حين أوى الشّبّان إلى الكهف فراراً بدينهم من الحاكم الظّالم وملئه فقالوا ياربّنا هب لنا من عندك رحمةً تسعنا وتشملنا ويسّر لنا مِنْ أمرنا سَداداً فى مستقبل أيّامنا. فاستجاب لهم ربّهم الّذى يجيب المضطرّ إذا دعاه فضرب جلّ وعلا على آذانهم وناموا نوماً موصولاً، العدد الكثير من السّنين فكانت ثلاثمائة سنةٍ شمسيّة، وثلاثمائة وتسع سنواتٍ قمرية. ثمّ بعثهم الله تعالى من بعد نومهم، وعرف قومهم حالهم، وكان فيهم المؤمنون وفيهم الكافرون. وقد بعثهم الله تعالى ليعلم جلّ وعلا أيّ الفريقين من المؤمنين والكافرين أحصى أمداً للبث الفتية فى الكهف، إضافةً إلى أنّ نوم الفتية واستيقاظهم رمزٌ للموت وللبعث بعد الموت. وبعد هذه القصّة الموجزة لأصحاب الكهف تأتى قصّتهم الطّويلة فى أسلوب القرآن الكريم المعجز فلا نقص ولا زيادة.

« قصّة أصحاب الكهف ، تفصيلٌ بعد إجمال »
الآيات (١٣ ـ ٢٦)

يقرّر السّياق أنّ ربّ العزّة والجلال يقصّ على حبيبه ﷺ خبر أهل الكهف المهمّ المفيد. إنّهم فتيةٌ في مقتبل العمر وريعان الشّباب، آمنوا بربّهم الواحد جلّ وعلا، وزادهم عزّ وجلّ هدى ، وربط على قلوبهم، وثبّتهم على الإيمان، إذ وقفوا بين يدي ملكهم المشرك، الّذى دعاهم إلى ترك عقيدة التّوحيد والإشراك مع الله تعالى سواه. إنّ الفتية أعلنوا على رءوس الأشهاد وقالوا : ربُّنا ربُّ السّماوات والأرض، لن ندعو من دونه جلّ وعلا إلهاً سواه، لقد قلنا، إن أشركنا، شططاً من القول، وبعداً أكيداً عن الصّواب. هؤلاء قومنا المشركون، اتّخذوا من دونه جلّ وعلا آلهة يشركونها مع الله تعالى فى العبادة، هلاّ يأتون على عبادتهم إيّاها بحجّةٍ بيّنة، ودليلٍ واضح. إنّه لا أحد أظلم ممّن افترى على الله تعالى كذباً بنسبة الشّريك إليه. وإذ اعتزلتم قومكم وما يعبدون من دون الله تعالى فالجأوا إلى الكهف وفرّوا إلى الغار الكبير فى الجبل الّذى تعرفونه وتعهدونه ينشر لكم ربّكم جلّ وعلا من رحمته فينقذكم من ورطتكم، ويهيىء لكم فى مستقبل أيّامكم من أمركم مرفقاً ترتفقون به وتنتفعون، ومن حالكم رشداً تهتدون به وتستفيدون.

وأنت لو نظرت إليهم ترى الشّمس إذا طلعت تميل عن كهفهم ذات اليمين، وإذا غربت تتركهم ذات الشّمال وتتجاوزهم. وذلك دليل على أن باب الكهف باتجاه الشمال والفتية فى فجوةٍ من الكهف وساحةٍ واسعة، وبذلك يدخل إلى الفتية النّور والهواء والدّفء، ويمتنع دخول ضوء الشّمس. إنّ ذلك من آيات الله تعالى الدّالّة على قدرته عزّ وجلّ، وإنّ الّذى يهديه الله تعالى هو المهتدى على الحقيقة، وإنّ الّذى يُضْلِلُه جلّ وعلا لن تجد له، يا أيّها الإنسان، وليّاً يتولى شئونه ويرعى مصالحه، ومرشداً يهديه إلى سواء السّبيل ويسدّده. وأنت لو نظرت إليهم تحسبهم أيقاظاً والحقيقة أنّهم رقود. والله سبحانه وتعالى الّذى لا يعجزه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء، والّذي يرشدنا إلى وجوب الأخذ بالأسباب، يقلّب الفتية

على جنوبهم ذات اليمين وذات الشّمال، وكلب الفتية باسطٌ ذراعيه بفناء الكهف حيث يوصد الباب ويغلق، بحيث إنّ من مرّ بالكهف ولمح الكهف على سبيل الافتراض يدرك أنّ لساكنى الكهف خصوصيةً لا ينبغى انتهاكها. ونستطيع أن نفهم أنّ ماكان بإذن الله تعالى من نصيب الفتية دليلاً على حياتهم ويقظتهم من تقليبٍ لهم ذات اليمين وذات الشّمال نال شيءٌ منه بإذن الله تعالى كلبهم الّذى كان على باب الكهف وكأنّه حارسٌ لهم. ومن ذلك النّصيب للكلب ربّما كانت هيئتُه حينما يقوم بمهمّة الحراسة ولُهاثُه. والله تعالى أعلم. وأنت أيّها الإنسان لو اطّلعت عليهم لولّيت منهم فراراً ولملئت منهم رعبا. ويصحّ أن يكون من أسباب الرّعب الّذى يتمكّن من النّاظر إليهم طول شعورهم وربّما أظافرهم. ويصحّ أن نفهم أنّهم حينما استيقظوا من نومهم وهم فى أعماق الكهف كان الوقت أدنى إلى الغروب، لذا كان تعاملهم باللّسان والصّوت والأذن بأكثر من العين والصّورة، خاصّةً وأنّ وطأة الجوع شديدة. وهكذا بعث الله تعالى أهل الكهف من نومهم الهنىء ليسأل بعضهم بعضاً عن مدّة لبثهم فى الكهف فربّما كانت أكثر من سحابة نهارٍ واحد. ولمّا كان دخولهم لكهف بعد طلوع الشّمس واستيقاظهم قبيل الغروب فقد كان جوابهم للسّائل منهم عن مدّة لبثهم : ﴿لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾ ويلاحظ اتّجاه الجواب من طول اليوم إلى قصر النّهار بسبب الشّمس الّتى يأخذ فيئها فى الامتداد باطّراد إلى أن يُقْبَضَ بإذن الله تعالى قبضاً يسيراً. وكأن الفتية، رغم الظّلام الّذى خيّم، قد أحسّوا فى أعماقهم بأنّ مدّة لبثهم فى الكهف ربّما كانت أطول ممّا ظنّوا لهذا أوكلوا حقيقة العلم بمدة لبثهم فى الكهف إلى ربّهم جلّ وعلا، مربّيهم بنعمه وآلائه. وتحت وطأة الجوع اتّفق رأيهم على أن يبعثوا أحدهم بدراهمهم الفضّيّة المضروبة قبل أكثر من ثلاثمائة سنة إلى المدينة كي يبحث لهم عن الطّعام الطّيّب الحلال كي يأتيهم برزقٍ منه ونصيب. وينصح الفتية رسولهم بأن يكون لطيفاً فى معاملة الآخرين، كيلا ينكشف حالهم اضطراراً، وبأن يكون حريصاً على ألاّ يشعر بالفتية وبمكانهم أحد، كيلا ينكشف حالهم اختيارا. ويعيّن الفتية السّببين الباعثين

لهم على بقاء حالهم سراً إلى أن يقضي الله تعالى أمراً كان مفعولاً. وهذان الباعثان هما اللّذان يلجأ إليهما الطّغاة فى كلّ زمان ومكان تجاه المؤمنين، القتل ولو كان رجماً بالحجارة فى حال إصرار المؤمنين على الاستمساك بدينهم، أو ردّهم إلى الكفر لا سمح الله، وفى هذه الحال لن يفلحوا أبدا.

ولمّا كانت الدّراهم آنذاك غير الدّراهم قبل ثلاثمائة سنة، هذا إلى هيئة الرّسول المخيفة الّتى استطاع الجمهور احتمالها لأنّ الرّسول واحدٌ وهم جميع، فإنّ النّاس قد شعروا بأنّ وراء الرّسول الّذى أمامهم سرّا. وهكذا أعثر الله تعالى النّاس على أهل الكهف، ليعلموا أنّ وعد الله تعالى بالبعث والحساب والجزاء حقّ، وأنّ السّاعة لا ريب فيها ولا شكّ، إذ يتنازع المؤمنون والكافرون فى أمر أهل الكهف ويختلفون فى شأنهم. أمّا الكافرون الّذين تربطهم بأهل الكهف وشيجة النّسب فقد اقترحوا بهذا الباعث أن تبني السّلطة على باب الكهف بنياناً فإنّ ربّهم جلّ وعلا أعلم بهم. وأمّا المؤمنون الّذين كانت مقاليد الأمور بأيديهم والّذين غلبوا الكافرين على أمرهم فقد تكفّلوا بأن يباشروا مهمّة بناء مكان لعبادة الله تعالى. وقد عُبّر عن مكان العبادة بلفظ المسجد والمراد الكنيسة، لأنّ الفتية من أتباع عيسى عليه السّلام.

وكما اختلف النّاس فى الكيفيّة الّتى يعاملون بها الفتية بعد أن توفّاهم الله تعالى، وفى البعث هل هو بالرّوح وحدها أم أنّه بالرّوح والجسد معاً وقد دلّ بعث الله تعالى أهل الكهف من نومهم على أنّ البعث بالرّوح والجسد معاً، كما اختلف النّاس فى كلّ ذلك اختلفوا فى عدد أهل الكهف. قال فريقان راجمان بالظّنون إنّهم ثلاثةٌ رابعهم كلبهم، وإنّهم خمسةٌ سادسهم كلبهم. وقال القليل من النّاس الّذين آتاهم الله تعالى علماً لدنّياً إنّهم سبعةٌ وثامنهم كلبهم. ولمّا كان عدد أهل الكهف ليس له أهمّيّةٌ فى الدّين كان فى السّياق تعقيبٌ بأنّ الله تعالى أعلم بعدّتهم الّتى لا يعلمها إلاّ القليل من عباد الله تعالى الّذين علّمهم الله تعالى، وكان نهيٌ للمصطفى ﷺ عن مجادلة أهل الكتاب فى أهل الكهف إلاّ فى حدود ما بيّن